حجة الوداع

وفي السنة التاسعة للهجرة خرج الرسول ﷺ إلى مكة للحج، وفي يوم الحج الأكبر تلقى وحيًا يتضمن الآية القرآنية المشهورة التي تقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٤)

لقد قالت هذه الآية في واقع الأمر إن الرسالة التي جاء بها الرسول من ربه، وظل يؤكدها بقوله وفعله كل هذه الأيام الطويلة، هذه الرسالة قد كملت. إن كل جزء في هذه الرسالة كان بركة، والآن لقد كملت الرسالة وضمّت في ثناياها أعلى وأسمى بركة يمكن للإنسان أن ينالها من الله ﷻ. وتتلخص الرسالة في اسم "الإسلام" الذي يعني الاستسلام لله تعالى ونشر السلام، هذا الاستسلام ونشر السلام كان هو دين المسلم حيثما كان، دين الإنسانية جميعًا أو دين النوع الإنساني. وتلا الرسول الكريم هذه الآية الكريمة في وادي المزدلفة حيث اجتمع الحجيج، وتوقف ﷺ في مِنى وهو في طريق عودته من المزدلفة في اليوم الحادي عشر من ذي الحجة. وواجه الرسول ﷺ الجمهور الحاشد من المسلمين، ووجه إليهم خطابه الشهير المعروف في التاريخ باسم خطبة الوداع وفيه قال:

"أيها الناس! اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا. إنّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم، إنّ الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا تجوز لوارث وصيّته، ولا تجوز وصيّته في أكثر من الثلث.

إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم. الولد للفراش وللعاهر الحجر، من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

أيها الناس! إن لنسائكم عليكم حقًّا، ولكم عليهن حق. أن لا يوطئن فرشكم غيركم ولا يُدخلن أحدًا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعظوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوان. لا يملكن لأنفسهن شيئًا، أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله. فاتقوا الله في النساء واستوْصوا بهن خيرًا.

أيها الناس! استوْصوا بالأسارَى خيرًا، فهم إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تطعمون، واكسوهم مما تلبسون. ومن فعل منهم خطأ و لم تغفر له فادفعه إلى أخيك ليكون عنده.

أيها الناس! اسمعوا قولي هذا وعوه، المسلم أخو المسلم، والناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوَى. (وبينما كان يقول ذلك شبك أصابع يديه معًا ورفعهما) وقال: الناس سواسية كأصابع اليدين فلا يفخر أحد على أحد.

ثم سأل الرسول ﷺ: أي شهر هذا؟ أي بلد هذا؟ أي يوم هذا؟

فأجاب المسلمون: إنه الشهر الحرام والبلد الحرام ويوم الحج المحرم.

فقال ﷺ: إن الله قد حرّم دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم كحُرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا إلى أن تلقوا ربكم، فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

وفي النهاية قال مختصرًا: بلغوا عني إلى أقصى الأرض، فرُبّ مبلغ أوعَى من سامع، ورُبّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه". (الصحاح الستة والطبري وابن هشام والخميس)

لقد لخصت خطبة الرسول ﷺ هذه زُبدة تعاليم الإسلام وروحه. لقد أظهرت إلى أيّ مدى عميق كان الرسول ﷺ معنيًا بصالح الإنسان وسلام العالم، وكذلك إلى أيّ مدى كان عمق احترامه لحقوق النساء والمخلوقات الضعيفة الأخرى. لقد عرف الرسول أن موته صار قريبًا، ولقد تلقّى من الله تعالى ما يشير إلى قرب وفاته. وكان مما عبر عن حرصه وقلقه عليه واهتمامه به هو قلقه واهتمامه بالمعاملة التي تلقاها النساء من الرجال. واهتم بألا يغادر هذا العالم إلى الآخرة دون أن يحقق للنساء المكانة التي هي حق لهن. ومنذ ميلاد الإنسانية، والمرأة يُنظر إليها على أنها عبد وخادم للرجل. كان هذا هو همّ الرسول الأول، وهمه الثاني كان الأسير أو السجين الحربي. لقد كان يُنظر إليهم باطلاً على أنهم عبيد، وكانوا يتعرّضون لكل ألوان القسوة والعدوان، وأحسّ الرسول ﷺ أنه لا يصحّ له أن يغادر هذا العالم دون أن يؤكّد لأسرى الحرب حقوقهم التي هي لهم في نظر الله ﷻ. وكذلك سببت التفرقة بين الإنسان والإنسان حزنًا وغمًّا للرسول.

وأحيانًا كانت التفرقة تصل إلى درجات لا يمكن أن تحتمل، إذ تم رفع بعض الناس إلى السماوات، وتم حطّ آخرين إلى أسفل سافلين.

إن الظروف التي أدّت لهذه التفرقة وعدم المساواة، هي نفسها التي أدّت إلى الخصومة والحرب بين أمّة وأمّة، وبين شعب وآخر. لقد تدبّر الرسول ﷺ بعمق كل هذه الصعوبات التي تعترض خير بني الإنسان، ورأى أنه ما لم يتم القضاء التام على روح التفرقة، فلا يمكن أن يتحقق التقدم، ولا يمكن أن يحلّ السلام في العالم حقًّا، ما لم يتم إزالة الظروف والقيود التي تشجّع شعبًا أن يغتصب حق شعب آخر، وأن يستلب أمواله ويزهق أرواحه؛ تلك الظروف التي تسود وتنتشر عندما تتحلل أخلاق الإنسان. كانت تعاليم الرسول ﷺ هنا أن الحياة الإنسانية والممتلكات الإنسانية لها نفس قداسة الأيام المعظمة والأشهر المقدسة والأماكن المقدسة. ولم يحدث أن أظهر إنسان ما اهتمامًا كهذا ولا عناية كهذه بسعادة النساء، أو بحقوق الضعفاء، أو بالسلام بين أمة وأخرى؛ كما فعل نبيّ الإسلام، ولم يقم إنسانٌ أبدًا بنفس ما قام به الرسول ﷺ لترويج المساواة وإشاعتها بين الناس. ولم يملأ التوق الشديد قلب إنسان نحو خير الناس كما ملأ قلب الرسول محمد ﷺ. فلا عجب إذن أن الإسلام قد دعّم وساند دون تحفظ حقّ النساء لتحتفظ بما تمتلك من مال أو بما ترثه. ولم تستطع الأمم الأوروبية أن تتصوّر للنساء هذا الحق إلا بعد ١٣٠٠ سنة من مقدم الإسلام إلى الأرض. وكل مسلم يدخل الإسلام يصير لفوره أخًا لكل مسلم آخر، ولا يهم الأمّة التي كان منها ولا الشريعة التي كان عليها. والحرية

والمساواة هما من المساهمات المميّزة التي قدّمتها الثقافة الإسلامية إلى العالم. وما أبعد التصورات التي تقدّمها الأديان الأخرى عن الحرية والمساواة، ما أبعدها عن ذلك الأفق الشامخ الذي بشّر به الإسلام وعلّمه للعالم وصار تجربة عملية مستقرّة. وفي مسجد المسلمين يقف الملك، وعالم الدين، والرجل العادي جنبًا إلى جنب، لهم نفس المكانة دون فرق بينهم، بينما تظهر تلك الفروق حتى يومنا هذا في أماكن العبادة لكل دين آخر، مهما ادّعت تلك الأمم والأديان أنها فعلت من أجل إعلاء حرية الإنسان والمساواة بين الناس، أكثر مما فعل الإسلام.

الرسول يُلمّح عن قرب وفاته

في طريق العودة، كرر الرسول ﷺ على مسامع أصحابه أن وفاته باتت قريبة، وقال لهم إنه ليس إلا بشرًا مثلهم يوشك أن يأتيه داع إلى ربه، وقد أعلمه ربه أن نبيًّا يعيش نصف عمر نبيّ قبله، وإنه يظن أنه مفارق لهم ليجيب الداعي وسيلحقون به. ثم سألهم: "فماذا أنتم قائلون"؟

ما إن سمع الصحابة ذلك حتى قالوا: "نقول إنك قد بلّغت وأحسنت، ونسأل الله أن يجزيك خير ما جازى نبيًّا عن أمّته، فسألهم قائلاً:

"أتشهدون ألا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن الجنة والنار حق، وأن كل نفس ذائقة الموت، والآخرة حق، وأن الحساب حق، وأن كل نفس ميّتة سوف تبعث يومًا، ويحشرهم الله جميعًا"؟ فأجاب

الصحابة بالإيجاب، وأنهم يشهدون أن هذا كله حق.

عند ذلك اتجه الرسول ﷺ إلى ربه قائلاً: "اللهم قد بلّغت اللهم فاشهد".

وعقب هذه الحجة، كان الشغل الشاغل للرسول ﷺ أن يعمل على تعليم أتباعه وأن يزكيهم بشكل عملي بأن يرفع من مستواهم الخلقي، ويصلح من سلوكهم، ويهذب من طباعهم. وصدر عنه عدة إشارات متكررة عن قرب لحوقه بربه، فأخذ في تهيئة المسلمين لهذا الأمر.

وفي أحد الأيام أبلغ المؤمنين أن الله قد أوحى إليه ما يلي:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (سورة النصر)

ويعني هذا أن الوقت قد جاء لكي يُقبل الناس بعون الله على اعتناق دين الإسلام، وفدًا بعد وفد، وفوجًا بعد فوج. ولذلك ينبغي للرسول وصحبه أن يتوجّهوا إلى الله بالحمد والتسبيح وطلب العفو عنهم، ليرفع سبحانه كل عقبة تعترض الطريق أمام جهود تأسيس الإيمان.

وذكر الرسول ﷺ لهم مثلاً في هذه الآونة: ''إن عبدًا قد خيره الله بين ما عنده أو أن يؤخره إلى حين، فاختار ما عند الله''. كان أبو بكر رضي الله عنه بين السامعين، واستمع لهذا الخطاب في قلق بالغ وانفعال متوهج بالحماس. أما الحماس فكان حماس وإيمان المؤمن العظيم، وأما القلق فكان قلق الصديق المخلص والتابع الوفي. لقد رأى في الخطاب نذيرًا واضحًا بقرب موت رسول الله، فلم يتمالك نفسه وانهار باكيًا.

ودُهش الصحابة الذين كانوا في المجلس لبكاء أبي بكر، إذ لم يكونوا قد بلغوا أعماق الكلمات ووقفوا عند ظاهرها. وسألوا ما خطب أبي بكر؟ إن الله يُبشر رسوله بالنصر القادم بينما هو يبكي. ونظر عُمر باستغراب إلى أبي بكر، وتعجّب كيف يسوق الرسول ﷺ أخبارًا سارة ثم يبكي هذا الشيخ؟

ولكن رسول الله وحده كان يفهم ما يحدث. فأبو بكر كان هو الوحيد بين الناس الذي وعَى كلامه جيدًا، وهو الذي فهم معنى الرسالة بشكل صحيح. فالبشرَى بالنصر القادم كانت تحمل معها أيضًا نذيرًا بقرب وفاة الرسول ﷺ.

ومضَى رسول الله يقول لهم إن أبا بكر هو أحب الناس إليه، ولو كان متخذًا أحدًا خليلاً لاتخذ أبا بكر خليلاً، ولكنه اتخذ الله ﷻ خليلاً. ثم أمرهم أن يُغلقوا كل باب إلى المسجد إلا باب أبي بكر. ولم يعد هناك شك أن هذا الأمر الصادر للصحابة كان يتضمّن نبوءة عن المنصب الذي سيشغله أبو بكر ﷺ بعد رسول الله كخليفة له، فقد كان له أن يُترك بابه مفتوحًا بين المسجد وبيته كي يؤمّ المسلمين في الصلاة.

بعد هذا الموقف بسنوات، وعندما أصبح عمر ﷺ خليفة، سأل الصحابة عن معنى قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾، ومن الواضح أنه تذكر الظروف التي علمهم الرسول ﷺ فيها معنى هذه الآية والآيات التالية لها، ولابد أنه قد تذكر كيف أن أبا بكر وحده هو الذي وعَى مضمون هذه الآيات. وها هو عمر الآن يمتحن

المسلمين عن معرفتهم بهذه الآيات، فهم لم يفهموها بكل عمقها حين نزلت، فهل يمكنهم الآن إدراك معناها؟!!

كان ابن عباس في الحادية عشرة من عمره حين نزلت هذه الآيات، وهو الآن في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، وبادر ابن عباس متطوّعًا بالإجابة فقال إن الآيات كانت تشير إلى نهاية أجل رسول الله حين أتم عمله وأدّى رسالته، فلم يرغب أن يطول به الأجل في هذا العالم. وكما أن الآيات تبشّر بقرب تحقّق النصر للإسلام، فلها وجه حزين آخر، وهو قرب مغادرة رسول الله لهذه الدنيا. وأكّد عُمر على كلام ابن عباس وأثنى عليه قائلاً إن أبا بكر وحده هو الذي فهم ذلك حينما نزلت هذه الآيات أول مرة.

الأيام الأخيرة في حياة رسول الله

عندما اقترب اليوم الأخير الذي كتب الله على كل إنسان أن يواجهه، كان عمل الرسول ﷺ قد تم، واكتمل كل ما أراد الله تعالى أن يوحيه إليه من أجل سعادة الإنسان وفائدته. لقد نفخ ﷺ حياة جديدة في قومه بتأثير من روحه المتألقة، ونهضت إلى الوجود أمّة جديدة، مع أسلوب جديد للنظر إلى الحياة ومع أُسس وموازين جديدة للمجتمع الإنساني. وباختصار، لقد خلق الله أرضًا جديدة وسماء جديدة، ووُضعت الأسس لنظام جديد. لقد تم حرث الأرض وريّها، وتم بذر البذور في التربة مقدمة لحصاد جديد. وها هو الحصاد قد بدأ الآن يلوح للأعين، ولكن، لم يكن للرسول ﷺ نفسه أن

يحصد. كان عليه فقط أن يحرث ويغرس ويسقي. لقد جاء كعامل كادح، وظل عاملاً كادحًا، وسيغادر الآن حقله.. مجرد عامل كادح. ولقد وجد أجره الحق في رضا الله خالقه، وفي قبول مولاه لعمله، وليس في شيء من حطام هذه الدنيا. وعندما جاء وقت الحصاد، فضّل أن يلحق بربه تاركًا الحصاد للآخرين.

وثقل المرض على الرسول ﷺ. واستمر أيامًا يزور المسجد ويؤم الصلاة، حتى صار أضعف من أن يستطيع ذلك أيضًا. وكان أصحابه قد تعوّدوا صحبته، ولم يكن سهلاً عليهم أن يصدقوا أنه قد يموت، لكنه كان يخبرهم مرارًا عن موته.

وحدث ذات يوم أن أشار إلى هذا الأمر فقال: "من أخطأ إلى أخيه فليقصّه في هذا العالم قبل ألا يكون ثمة دينار ولا درهم. ومن كنت جلدت له ظهرًا فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضًا فهذا عرضي فليستقد منه". وتأثر الصحابة فبكوا، وانحدرت الدموع من مآقيهم، فكم تحمّل هذا الإنسان العظيم من الآلام، وكم عانى من أجلهم فوق ما يحتمل.

لقد عانى واحتمل الجوع والعطش كي يستطيع الآخرون أن يَطعموا ويرتووا. ولقد أصلح ما تمزّق من ثيابه، ورقّع حذاءه كي يتمكن آخرون أن يرتدوا زيًا حسنًا، ثم ها هو الآن يطلب منهم أن يقتصّوا من أخطاء متخيلة محتملة، ربما يكون قد اقترفها بحق شخص آخر. فيا لله! ما كان أعظم احترامه لحقوق الآخرين، وما أبلغ حرصه على أن ينال كل إنسان حقه، مهما كان!

وتلقى الصحابة عرض الرسول ﷺ للقصاص في صمت وقور، ولكن أحدهم تقدم قائلاً: "بلى يا رسول الله، لقد ضربتني في جانب بطني حين مررتَ على الصفّ في المعركة فوكزتني، إنك لم تتعمد ذلك ولكنك ذكرتَ أن نقتصّ منك حتى ولو كان الأذَى غير مقصود، فأقدني هذا الخطأ يا رسول الله". وامتلأت قلوب الصحابة سُخطًا وغضبًا لذلك الطلب. لقد تلقّى جميع الصحابة الحاضرين عرض رسول الله بصمت حزين وقلوب منكسرة، فكيف لهذا الرجل الأحمق ألا يفهم روح السموّ في ذلك العرض النبيل، أو يغفل عن إدراك معنى هذه اللحظة المهيبة؟

لكن الصحابي بدا عنيدًا مصرًا على أن يطالب الرسول ﷺ بالتنفيذ الحرفي لما نطق به. فدعاه الرسول ﷺ ليأخذ منه حقه ويقتصّ منه. فطلب الرجل من الرسول ﷺ أن يكشف له ظهره، لأنه حين وكزه، وكزه على اللحم. فاستجاب له الرسول ﷺ، وكشف عن ظهره، وطلب منه أن يضربه كما ضربه.

ولكن بدلاً من الاقتصاص، إذا بالصحابي ينحني على ظهر الرسول ﷺ بعيون دامعة ويقبّله. فتساءل الرسول ﷺ عما يفعله، فقال الرجل إنه فهم من كلام رسول الله أن أيامه صارت معدودة، وربما لن تتاح لهم فرصة مثل تلك مرة أخرى ليعبروا له عن مدى الحبّ والمودّة التي يحملونها له في قلوبهم، وصحيح أن رسول الله كان قد وكزه مرة دون قصد، ولكن من ذا الذي يمكن أن يفكر في أن يقتص لذلك من رسول الله. لقد خطرت هذه الفكرة على باله في التوّ والحال، فرأى

أن ينتهز الفرصة ويقبّل جسد رسول الله بحجّة الاقتصاص.

أما بقية الصحابة الذين كانوا يغالبون دموعهم، فقد تمنوا لو أن تلك الفكرة قد خطرت أيضًا على بالهم.

اللحاق بالرفيق الأعلى

كان المرض يشتد بالرسول ﷺ وتتطوّر حاله بشكل يزداد معه اقترابه من الموت. وكان الحزن والألم يخيّمان على قلوب الصحابة. كانت الشمس التي طلعت على سماء المدينة تتألق ساطعة كما كانت تتألق كل يوم، ولكنها كانت تبدو في عيون الصحابة شاحبة، يزداد شحوبها يومًا بعد يوم. ثم جاء يوم انبثق صباحه كما كان ينبثق صباح كل يوم، ولكن الصحابة رأوه صباحًا يجلب معه الظلمة لا النور، فقد جاء أخيرًا أوان مغادرة الروح الكريمة لوعائها المادّي كي تلحق بخالقها الرحيم. ومع مرور الوقت، صار تنفّسه ﷺ أصعب، وكان يقضي أيامه الأخيرة في غرفة السيدة عائشة، فطلب منها أن ترفع رأسه قليلاً نحوها، ففعلت لما عبّر لها عن صعوبة تنفسه. وجلست وهي تضم رأسه إليها.

وبدأت تشتد عليه سكرات الموت، وارتعش بشدة وعيناه تدوران هنا وهناك، وهو يردد "لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد". وكأن هذه كانت وصيّته الأخيرة لأتباعه ولأمّته وهو على فراش الموت. وكأنه أراد أن يقول لهم إنهم سوف يعلمون ويشهدون أن الله تعالى قد فضّله على سائر الأنبياء، وجعل مسعاه هو الأنجح،

ولكن عليهم أن يحذروا أن يجعلوا قبره قِبلة للعبادة، وعليهم أن يدعوا قبره مجرّد قبر، وليعبد الآخرون قبور أنبيائهم ويحجّوا إليها ويجعلوها أماكن لتقديم القرابين ليكفّروا عن خطاياهم لديها وينسبوا إليها المحامد والشكران. إن للآخرين أن يفعلوا ذلك، وأمّا أمّته فلا يليق بها ذلك، فعليهم أن يذكروا قبلتهم الحقيقية، ألا وهي عبادة الله، ولا أحد غير الله الذي لا إله غيره.

وبعد أن أنذر الرسول ﷺ الأمّة، وحمّلهم واجبهم وعرّفهم مسؤولياتهم، وهي أن يحرسوا المبدأ الأسمى في الحياة وهو وحدانية الله تعالى وواجب التفريق بين الله والإنسان، بدأ بعدها يغلق عينيه، وكل ما قاله حينئذ: "مع الذين أنعمتَ عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى". وبعدها أسلم الروح.

وبلغت الأخبار المسجد حيث كان كثير من الصحابة مجتمعين، بعد أن تركوا كل شؤونهم الخاصة وجاءوا إلى المسجد يتوقعون أخبارًا حسنة بدلاً مما سمعوه عن موت رسول الله، وكان لوقع النبأ عليهم أثر نزول الصاعقة من السماء. لم يكن أبو بكر رضي الله عنه هناك ساعتئذ، وكان عمر رضي الله عنه في المسجد، ولكن الحزن قد أصابه بالذهول التام، فكان يغضب كل الغضب إذا سمع أحدًا يقول إنّ رسول الله قد مات، بل سلّ سيفه وهدّد به من يقول ذلك. إذ كان يرى أنه لا زال هناك الكثير من العمل ليقوم به الرسول ﷺ، وعلى ذلك فلا يمكن أن يموت،

ولا بد أن روحه فارقت جسده ليلقَى خالقه كما ذهب موسى عليه السلام للقاء ربه ثم عاد، لذلك فلا بد من عودة رسول الله ليتم العمل، فهناك المنافقون مثلاً لم يتم حسم أمرهم بعد، فلَيرجعن رسول الله، فليقطعن أيدي وأرجل أولئك الذين يزعمون أنه مات. هكذا كان عمر تتجاذبه الخواطر والأفكار، يذهب ويجيء والسيف في يده كأنه قد فقد عقله وهو يتمتم ببعض الكلمات، فكان يقول: "من قال إن رسول الله مات ضربت عنقه".

ومال بعض الصحابة إلى تصديق قول عمر، بل لعلهم كانوا يأملون أن يكون محقًّا في كلامه، ولعل هناك خطأ ما، ولعل النبيّ لا يمكن لـــه أن يموت.

وهرع بعض الصحابة ليبحثوا عن أبي بكر رضي الله عنه، فلما وجدوه وأخبروه بالأمر اتخذ أبو بكر طريقه مباشرة إلى المسجد، ولم يكلم أحدًا حتى دخل على عائشة في غرفتها فسألها: "هل مات رسول الله"؟ فأجابت عائشة بالإيجاب. فقصد إلى حيث كان جسد رسول الله مُسجّى على فراشه، فكشف عن وجهه وأكبّ عليه فقبّله وبكى حبيبه حزينًا وقال: "بأبي أنت وأمي، لا يجمع الله عليك موتتين أبدًا".

كانت جملة عميقة المغزَى غنيّة المعنى، فكانت ردًّا على ما كان عمر يردّده في حزنه دون وعي، فالنبي ﷺ قد مات مرة، وكان هذا هو موت الجسد، الموت الذي على كل إنسان أن يذوقه، ولكن لم يكن له أن يذوق موتًا ثانيًا، فليس عليه بعد ذلك من موت تذوقه الروح، كما أنه لن تموت عقائد الحق التي غرسها في أتباعه، ولن يموت

النبت الذي تحمّل التعب والآلام من أجل زراعته في تربة هذا العالم. وإحدى هذه العقائد.. إحدى العقائد الهامة.. هي ما علمهم من أن كل الأنبياء كانوا من البشر، وأن البشر لا بد أن يموتوا، ولا يصح للمسلمين أن ينسوا هذه الحقيقة فوْر موت نبيهم ورسولهم.

وخرج أبو بكر رضي الله عنه بعد أن قال هذه العبارة العظيمة عند جثمان رسول الله، واخترق صفوف المسلمين وتقدم من المنبر صامتا. وعندما نهض ليتكلم، وقف عمر إزاءه وسيفه في يده، وعبّر عن عزمه أن يضرب عنق أبي بكر لو قال إن الرسول ﷺ قد مات. وبدأ أبو بكر في الكلام فأمسك عمر بتلابيب ثوبه ليمنعه من الكلام، فنَزَع أبو بكر ثوبه من يد عمر، وتلا هذه الآية الكريمة:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٥)

وهذا يعني أن رسول الله هو إنسان يحمل رسالة من الله تعالى، وقد كان هناك رسل آخرون، كلهم من البشر، وكانوا يحملون رسائل من الله تعالى، وقد ماتوا جميعًا. فهل لو مات محمد تنقلبون على كل ما علّمكم إياه وكل ما تلقيتموه منه؟ لقد نزلت هذه الآية بعد معركة أُحُد، عندما سرَت إشاعة بأن العدوّ قد قتل رسول الله، وأدّى ذلك إلى أن الكثير من المسلمين فقدوا لبّهم ورباطة جأشهم وانسحبوا من أرض المعركة. لقد نزلت الآية من السماء وقتها لتربط على قلوبهم وتشدّ رباطهم، وكان للآية نفس التأثير في هذه المناسبة، في ذلك اليوم

الحزين. وأضاف أبو بكر بعد تلاوة الآية الكريمة فقال: "من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت".

استعاد الصحابة توازنهم لدى سماع ذلك، وتغير عُمر نفسه عندما سمع الآية التي تلاها أبو بكر، وبدأ يستعيد رجاحة عقله التي غابت عنه بعض الوقت. وعندما انتهَى أبو بكر من كلامه، أدرك عمر أن الرسول ﷺ قد مات فعلاً. وما إن تكشفت لـــه الحقيقة الحزينة إلا وبدأت ساقاه ترتعشان وسرعان ما سقط مغشيًا عليه. هكذا كان الرجل الصلب القوي، الذي أراد أن يتصدّى لأبي بكر ويرهبه بسيفه المسلول في يده، إذا به يتحوّل بعد سماعه كلمات أبي بكر إلى إنسان لا يقوَى على الوقوف على قدميه، ولم يجد بُدًّا من أن يذعن للحقيقة الحزينة. وأحس الصحابة أن هذه الآية لم تنْزل إلا في ذلك اليوم لأوّل مرة، وكان لها أثر بالغ ووقع عظيم عليهم، وفي نوبة حزنهم العميق الذي ملأ نفوسهم، وفي غمْرة الأسَى الحزين الذي عمّ وجدانهم، نسوا من هول مصابهم أن الآية الكريمة كانت في القرآن المجيد.

لقد عبر الكثيرون عن الحزن الذي أصاب المسلمين عند وفاة الرسول ﷺ، كما رثاه الكثيرون من الأدباء والشعراء، ولكن الرثاء الأعظم الذي ظل حتى اليوم يفوق كل ما قاله الآخرون في رثاء الرسول ﷺ وفي التعبير عن حزن المسلمين، كان هو ما عبّر به حسان بن ثابت، شاعر الرسول ﷺ الذي أفصح عن حزنه في مقطع من الشعر يقول فيه:

كنتَ السّوَاد لناظري فعمَى عليك الناظرُ
من شاء بعدك فليمت فعليك كنتُ أحاذرُ

لقد عبر هذا المقطع عن إحساس كل مسلم. ولعدة شهور بعد ذلك.. ظل الرجال والنساء والصبيان ينشدون هذا المقطع الشعري في جنبات المدينة وفي طرقاتها، وظلت كل طريق خطا عليها رسول الله، وكلّ حبة رمل سار فوقها، تردّد صدَى ذلك الشعر الرقيق الذي أنشده حسان بن ثابت.